الذكرى فوق ربى لبنان

بقلم « الشقيق »
احد المتخرجين في كليتنا

. . . وكانت الشمس ترسلُ سهاماً من النورِ مرهفة الحدّين فتكسر على الصخور الناتئة وتطير شعاعاً فتقع شظاياها الحرقة على العشب الاخضر فيذبل ويذوي . .

على هذا العشب كنتُ اسير الهوينا مستنداً على ذراع صديقٍ لي رقيق الحاشية عند اصيل نهارٍ في غرّة آب الحالي . . . امامنا البحر صافٍ كالمرآة ينعكس به خيال بعض قوارب الصيد وقلوعها البيضاء الناصعة وعلى اديمهِ بعض الطيور الغوّاصة جاثمة بهدوء تكاد لا تتحرّك . وفوقنا سماء لا غيم يعكر صفاءها زرقاء نقيّة . وعلى اليمين المركز البطريركي تكتنفهُ غابة من الصنوبر جميلة خضراء وهو في وسطها ابيض يشعُّ زجاج نوافذهِ تحت الاشعة الشمسيّة فكأنهُ لؤلؤة في وسط حلقة من الزبرجد . . . وعلى الشمال سلسلة متتابعة من التلل جرداء قحطاء ترى عليها من مسافة الى أخرى بعض شجيرات خرّوبٍ او بلّوط منفردة يأوي اليها الطير اذا ما عسّس الافق وهجمت جحافل الظلام

وقفتُ ووقف رفيقي يسرّح البصرَ في هذا المشهد وكان نسيمٌ عليل نسيم آخر النهار يتلاعب باعطافنا فانصتنا لنسمع حديثه اذ للنسيم حديث رقيق لا يعيهِ الّا ذوو القلوب المقرّحة . . .

وكنت انا اسمعهُ ! . . .

وقفةٌ ذكرتني بايامٍ مضت « ما كان احلاها واشهاها » . . .

منذ اربع سنوات كنت اقف مثلها والى جانبي شقيقٍ لي في ريعان الشباب طيّب النفس رقيق القلب يلحظني باعينهِ النُجل ويبتسم لي بفمٍ ظريف فتتجلى لي الدنيا برأي جبينهِ الوضّاح وشعرهِ الكستاني المتموّل البرّاق . . .

خُلقَ شاعراً فظلّ مدّة حياتهِ القصيرة مشغوفاً بالشعر والشعراء . تغنّى بهِ كما يتغنّى الطائر لطلوع الفجر حتى اذا بلغَ ضحى عمرهِ انقطع صوته . . . تاجى زهور الحقل فسامرته ولمّا كان آخر النهار ذبلت فلم يشأ ان يخالفها فعاش ما يعيش الورد فصلَ الربيع

كم قضينا ساعات وانا متكئ على صدره وهو يطلعني على اسرار الطبيعة المكنونة اسرار لا يعلمها الّا القليلون فينفتح صدري وتنتعش نفسي وتهتزّ عظامي طرباً . . . في تلك الرقعات كان يُلقّنني لغة الطيور اذ تتصايح عند الغروب وهي ترفرف فوق رؤوسنا او تمرّ كالسهام فتمزّق اديم السماء الزرقاء وتخدّده تخديداً . . . هناك كان يترجم لي ما كان النسيم يوحي به اليه من الاسرار اللطيفة اذ يهبّ اصيلاً فيتلاعب بشعره الناعم ويُغازل جبينه الابلج . ويعلّمني ما يقوله البحر عند دفانه وما يتهدد به الصخور عند هياجه اذا تعالت امواجه فهدر وزمجر . . .

الى جانبه وعلى قلبه الحنون تعلّمت كيف ارقّ للضعيف واشفق على ذوي البأساء محاورات بيننا جرت وحادثات انطوت . اخذتُ عنه كل ما يأخذه الاخ المسيحي عن اخيه البكر من الافكار الشريفة والمعاني الرائقة الشعرية والاقوال الادبية اللطيفة فاستنارتُ بها واتّعظت وكان لي خير منير وواعظ . . .

ألا وهو اليوم اوعظ منه في حياته . . . ضجيع الثرى . ذبلت زهرة شبابه النضر وذوى غصن حياته الغضّ كما ذوى هذا العشب الذي اطأه . . . فرحمة الله على الشقيق الذي ثوى وطوته الارض . . . كان وكأنه لم يكن . . .

*

مرّت هذه السنوات الاربع في مخيّلتي فكأني اراها بكل ظروفها . انّما مرّت كالبرق الخاطف فظللت اتبعها بفكري وقد شُغفت بها وهي تهرب مسرعة وانا اجهد النفس بالتشبث ببقاياها لعلّي اجد سلوةً وعزاء في تذكار حوادثها . فاشرأبّ عُنقي وتقلّب جبيني وحبستُ نَفسي وانا لا اعي لئلّا يعوقني زفيره وشهيقه عن اللحاق بالتذكار . . . انّما صور الماضي تمرّ سراعاً

فما عدت الى ذاتي الّا وصديقي تنحّى عني تأدّباً واحتراماً لعواطفي واشجاني . فانقبضتْ نفسي وذبلت عيناي وحسستُ بان ناراً يتأجج سعيرها في كبدي وان روحي قد بلغت التراقي . فصرختُ : يا لله ما هذه الحالة . . . ان قلبي كاد ينفطر لدى هذه الذكرى . . . فدعنا نفرغ على القرطاس ما يكتنه الفؤاد فيخفّ عبئه

قلت . وجلست على صخرة مطرقاً واجماً . ثم كتبت :

طوّق الحزنُ فؤادي بلهيبٍ ومجامرْ
مثلما طوّقَ ازنا دَ الفتيّاتِ اساورْ
ورماهُ الدهرُ من أسـ ـهمهِ رميّةَ غادرْ
ليسَ بين الاوليـ ـين نظيري.. والاواخرْ
من فؤادٍ حرَّهُ الـ ـشوقُ بنيرانِ الهواجرْ
رجفانٍ قد اصابتـ ـهُ الملمّاتُ النوادرْ
كيفما مِلتُ ارتمت فو ق البلايا كالكواسرْ
من يقي المسكين انّي صرتُ مثل الضبِّ حائرْ
اي وربِّ العرشِ مَن يعرفُ ما ضمن السرائرْ
لم اعد اعرف ما بي لست ادري ابن سائرْ
أإلى عيشٍ رغيدٍ ام الى جوف المقابرْ
جمجم النيرُ رجائي لا يزال الليلَ ساهرْ
ولذيذُ العيش عندي يومُهُ اصبحَ نادرْ
ما حياةُ المرء في الدنـ ـيا سوى عبرةِ عابرْ
ايها العابرُ في ار ضِ الشقا والحزنِ.. حاذرْ

وكان صديقي يرعاني عن بعدٍ فهلعَ لما رآهُ من تغيّر سحنتي وانقلاب هيئتي فاقترب مني ووقف... فرفعت اليه اعيناً كاد ماء الحياة ان يجمدُ فيها وتلاحظنا هنيهة فرأيت عينيه مملوّتين حناناً واشفاقاً كانهما يسألاني ما اكتب. فمددت لهُ الصحيفة وقلت وقد خانني الجلد: شعرٌ... شعرٌ

فعرف الموضوع وحوّلَ عني نظرهُ فرأيت على ضياء آخر اشعّة الشمس الصفراء دمعةً ترقرقت في مقلتيهِ وسالت على خدّيه المورّدين... ثم ساد السكوت كأنّ على رؤوسنا الطير

وكانت الشمس قد لامست البحر فصبغت مياههُ بلونٍ ارجوانيّ قانٍ وانطفأ نورها فاصبحت كقرصٍ من الدم مربعٍ تحيط به هالة كامدة اللّون. وهي بقايا انوار ملك النهار تتطاير من كبدهِ وتنتثر حولهُ فتُخبرُ عن مجدهِ السالف في مملكة الفضاء. وتقول: «الوداع ايها الفرحون بنوري فان نوري زائل. الوداع ايها المحزونون لذهابي ان البقاء لمن لا اوّل لهُ. الوداع يا ابن البشر انت اليوم هنا وغداً في دار البقاء... كما انطفأتْ انواري وسأتوارى في البحر. هكذا سينطفئُ نور حياتك وتخمد نار الشباب والصبا بين جوارحك ويغيّبكَ الثرى... فانظر الى الابديّة...»

ثم غابت . . . واذا بصورة شقيقي العزيز وهو منتصبٌ بازاء عيني فسمعتهُ يقول: قد غبتُ انا ايضاً عن العيان فلا تبكني . . . انتظرك في دار الخلد فاياك ان تحيد عن طريق الفضيلة فنجتمع في مصاف الابرار دون فراق . . . هناك »

واذ ذاك قُرع بالقرب منا ناقوس دير للراهبات قرعاً خفيفاً ايذاناً بالتبشير الملائكي . فلم اعِ على نفسي الّا واني جاثٍ على الحضيض بين ذراعي صديقي ورأسي بين يديَّ اردّدُ هذه العبارات بكل هدوء وسكينة : « اللهم انت وحدك الباقي فاجمعني مع الاحباب . . . هناك »

(المشرق) لمّا كان المثل بالمثل يُذكر احببنا ان ننقل هنا مخمّساً للاديب اسعد افندي رستم ورد في جريدة المهاجر الامركيّة وصف فيهِ الشاعر جنازتي غنيٍّ وفقير ثم ختمهُ احسن ختام:

قامتْ من غوغا المدينة ضجةٌ ... وقد اصبحتْ فيها المعيشة ضنكا
فجئت حقولاً فضّةً مسطرةً ... تعيش بها النفسُ الحميّة حرّةً
وتأمن من شرّ النفوس شراكا

صعدتُ الى تلٍ رفيعٍ مقابلٍ ... وقد ظهرتْ في البعد ابراج بابلِ
اشارت تباهي رجا بأنامل ... فنالت غيوبي من دخان المعامل
ويا رب ما هذه السما سماكا

وحوّلت عيني نحو حقل مزيّنٍ ... فابصرت فيهِ مدفناً اثر مدفنِ
وخامتهُ اجداثهُ لقد اعتني ... بها وبها لا يدفنون سوى الغنى
مقدّسة تقضي بخلع حذاكا

هنالك ما بين المدينة والردى ... وقفت أُجيل الطرف في كل ما بدا
فمن جهة ساد السكون مؤبدا ... ومن جهة اخرى القنوط والاعتدا
يزيدان بين العاملين عراكا

وفيما انا مستسلمٌ للتأملِ ... بدا ليَ جمع سائر بتهلّلِ
جنازةُ انسانٍ غنيٍ مبجّلٍ ... يُثلّثُ بنعشٍ بالزهور مكلّلِ
يقول لهُ الجمع: الفنوس فداكا

وما وصلوا حتى انبرى الشعراء ... بمتفيات القول والخطباء
فكان مديحٌ منهم ورثاء ... وكان عويلٌ بينهم وبكاء
وفيهم من يبكي ومن يتباكى

فمادوا وكلٌّ يمسح الدمع مسحةً وللميت في الفردوس يطلب فسحةً
يقولون أولاك المهيمن رحمةً وبعدك اعطانا من الصبر نعمةً
وبدّل بالرضوان منهُ ثراكا
ولم يمضوا حتى رأيت ثلاثةً يقلّون نعشًا مطرقين كآبةً
وأمًّا وطفلًا يبكيان مرارةً وكلًّا الى التابوت ينظر تارةً
وطورًا اليهم يتبعُ حراكا
وما ليثوا ان اودعوا الميت حفرةً بعيدًا وشهم من يُصد الحزن زفرةً
وعادوا فلا راثٍ يردّد شهرةً ولا ذارفٌ غير الثلاثة عبرةً
ولا قال الّا ثم: نودُّ بقاكا

*

فقلت: لقد عاش الغنيُّ مكرما ومات فواروهُ الضريح المفخما
أما لفقير جائع وطنٌ أما سألتُ الحي والتفتُ الى السما
فجاوبني صوتٌ يقول: هناكا...

نشرة علميّة .

لـلاب لويس شيخو اليسوعي

ان ترقي العلوم في أيامنا متواصلٌ لا تكاد تجد علمًا واحدًا الّا تتناصر الاخبار في تمداد اكتشافاته ولو شئنا ان ندوّنها في كل اعداد المشرق لضاقت عن حصرها. وها نحن نذكر بعض ما تهمُّ قرّاءنا معرفتهُ ممّا اكتُشف في السنة الجارية مقسّمين ذلك الى ابواب عموميّة

١ العلوم الطبيعية

﴿ المراكب الجويّة ﴾ انّ الاختبارات الجديدة التي اجراها قومٌ من الفرنسويين والالمان في هذه السنة قد حلّت نهائيًا ذلك المشكل العظيم الذي حاول العلماء ازالتهُ منذ الوف من السنين ولاسيما في اثناء القرن المنصرم اعني مجاراة الطير في ركوب الهواء وتسيير المراكب الجويّة في فضاء السماء على طوع مشيئة راكبها. وكان السابق في هذا الميدان احد الفرنسويين الذي منذ خمس سنوات لا يزال يذلّل الصعاب ويمهّد كلّ العقبات حتى اصاب المرمى نريد المسيو ليبودي (المشرق ٧: ١٣٦): فانّ المناطيد التي جهّزها